المقدمة

اذا كان العالم ينتج كل دقيقتين تقنيات جديدة ، ، فأن الاتصال الرقمي حوّل العصر إلى رموز ومعلومات عصيّة عن الإدراك لحجمها وتنوعها وكثافة بثها ، بحيث نجد أنّ ازدياد المعلومات خلال السنوات العشر الأخيرة تعادل المعلومات التي انتجتها البشرية على مدى القرون الماضية .

والأخطر في التقنيات الإعلامية الرقميّة ، انها ساعدت الأقوياء ، عسكرياً ، واقتصادياً ، ومعلوماتياً وتكنولوجياً ، على تضليل عقول شعوبهم ، ومسح ذاكرتهم الإنسانية ، مثلما ساعدت على الهيمنة والإقصاء ، وتدمير ثقافة ومنظومة قيم الضعفاء ، ولكنها ساهمت أيضاً في توسيع فضاء حرية المعلومات وتداولها ، وتقريب العالم جغرافياً ومكانياً وإنسانياً ، والأهم انها الغت رقابة الحكومات المستبدة ، وأسقطت جدرانها الحديدية التي بنتها لتكبيل المواطن ، وغلق منافذ تنفسة ، وتكتيم أفواهه .

ولم تعد القرية التفاعليّة التي نعيش عصرها اليوم ، قرية للخاملين والمندهشين ،إنما أصبحت قرية رقميّة للفاعلين والمبدعين والمجتهدين ، فلا يجوز لنا اليوم أن نكون خارج العصر ، منتقدين ومستهلكين ومنكمشين ، ولا يوجد حل في عصر العولمة الاّ ان تتفاعل معها بمنطق العلم ، فنأخذ إيجابياتها ، ونرفض سلبياتها ، والأهم ان نبدأ التغيير : تغيير ذواتنا وعقدنا وأمراضنا وقوانيننا وتشريعاتنا وسياساتنا ودساتيرنا الاستبدادية ، وعقولنا القمعيّة ، وتغيير أنماط جامعاتنا التقليدية وعصرنتها ، وتنمية البحث العلمي ، وجعل المفكر والعالم والباحث الرجل الأول في أوطاننا ، وهذا لا يحدث أيضاً ، الاّ بتوسيع رقعة الحريات وممارسة الديمقراطية وحرية الإعلام والتعبير .

وببساطة شديدة، فأن هذا الكتاب (يورانيوم الإعلام)• ، هو محاولة علميّة اكاديميّة لدراسة تاثيرات العولمة الإعلامية ومضامينها على المتلقي العربي المندهش بمعلومات الآخر، الأكثر منهجيّةً وتطبيقاً للعلوم المتطورة، والأبرع في استثمار تكنولوجيا المعلومات والإعلام في احتلال العقل البشري، وتدمير مدركاته الذهنيّة والحسيّة، وهو محاولة لتفكيك البيئة العربية المريضة بعقدة (الآخر)، وحمى الأميّة الأبجدية والحضاريّة، والملوثة بدخان مصانع القمع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وفضاءات مغلقة أمام الشباب العربي الذي لايجد أمامه الاّ استهلاك عشرات الساعات يوميّاً من المواد الإعلامية المليئة بالعنف والجريمة والجنس، بهدف (التنفيس) والهروب من الواقع بحثاً عن الذات.

وبأختصار فان الكتاب يهدف حسب أبواب محتوياته الى:

الباب الأول، إيقاظ العقل العربي، وتحريره من قيود النمطيّة والتخلف واللامبالاة إتجاه مايحدث من ثورات رقمية في مجتمعات المعلومات، مقابل مجتمعات ورقيّة مازالت في حالة اندهاش من تقنيات الآخر، وثوراته المعلوماتيّة، وهو اندهاش يمنعها من التفاعل مع العصر وثوراته، وجعلها مجرد مستهلكة وخاملة، لأن الصراع المستقبلي سيكون موجها للسيطرة على تقنيات الاتصال. والبقاء للاصلح لمن يهيّمن على هذه التقنيات، ويستوعب منطق العولمة وأدواتها ومضامينها وأسرارها المبطنة.

• مادفعنا الى إستخدام مصطلح جديد (يورانيوم الإعلام)، كمرادف لمصطلح (اليورانيوم المخصّب)، وجعله عنوان هذا الكتاب، هو تطابق الوظائف التدميرية والمرضيّة، ونتائجهما على الأنسان جسدياً ومعنوياً ونفسياً، فالأول يؤدي الى تدمير العقل والنفس، بينما الثاني (اليورانيوم المنضب) يؤدي الى الموت جسدياً، إضافة الى تاثيراته المرضية البايولوجية والنفسية. وهو (منتج ثانوي لعملية تستخدم في تصنيع وقود الطاقة النووية أوالأسلحة النووية، ويحتوي على بقايا دقيقة من مكونات النشاط الاشعاعي، وقوته تزيد بمقدار ١,٧ عن قوة الرصاص، ويستعمل في قذيفة بأمكانها إختراق بسهولة وبيسر درعاً من الدبابات الصلبة وغيرها من المركبات العسكرية، وقد إعتمدته الولايات المتحدة في الأسلحة إثناء حروبها في البلقان وأفغانستان والعراق، وقد تسبب في مرض وموت أكثر من نصف مليون عراقي منذ حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وأهم امراض اليورانيوم مرض السرطان الذي مايزال يفتك بالاف العراقيين لحد الآن.)

المصدر: صحيفة الإندبندنت البريطانية، بتاريخ ١٤ / ١١ / ٢٠٠٠.

الباب الثاني، تحليل واستقراء مايجري للمنطقة العربية من إحتلال واضح للإعلام القادم من شمال العالم، وهو يحمل تناقضات البيئة وإفرازاتها ونماذجها الفكرية، وأنظمتها الأيديولوجيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، لأهداف بعضها تجاريّة، والأخرى موضوعيّة، بمعنى الأعتراف بوجود مناطق قوة ونفوذ للمعلومات، مقابل مناطق ضعيفة تستقطب (معلومات الآخر) لملئ اوقاتها بالمواد الإعلاميّة، لأ نها مجتمعات لاتملك موارد كافية للمنافسة، ولا إمكانيات ذاتية تخولها دخول السوق العالميّة، وهي محصلة طبيعيّة لانعدام التوازن في موارد القوة الدولية، ولكن الأخطر، هو ان تستثمر الدول القوية هذه التقنيات لتعميق مفهوم نموذج التبعيّة القائمة على المفهوم الغربي الرأسمالي الاستعماري، وملخصه (الغرب السياسي والاجتماعي هوالقدوة للدول الناميّة)، بمعنى ان مايجري هو استراتيجية سياسيّة، بأعتراف المنظرين في أمريكا والغرب بأعتبار ان (الإعلام اداة سياسيّة للهيمنة وللتوجيه والسيطرة على العقول لفرض قيمها وأفكارها وأنماط سلوكها بحيث تتماشي مع مصالحها).

الباب الثالث، عرض نماذج تطبيقية لبعض الحملات الإعلاميّة والدعائيّة الموجهة للمنطقة العربية، وهي حملات إتخذت أكثر من نموذج للحرب والهيمنة، كالحروب العسكرية والاقتصادية والإعلامية، وأستثمرت تقنياتها واختراعاتها ومبتكراتها لتدمير البشر جسدياً ومعنوياً، من خلال احتلال الأرض، أو احتلال العقل وتدميره، وهذا ماحدث للعراق، كنموذج وتجربة، حيث تم تدميره بأسلحة الدمار وتقنياتها العسكرية المتطورة ،وحروب الجوع من خلال الحصارالأقتصادي، وحروب المرض من خلال (اليورانيوم المنضب)، وبحروب الأعصاب من خلال الإعلام وتقنياته ومضامينه، وهي حروب انهكت الشعب العراقي ومهدت لأحتلال العراق عام ٢٠٠٣.

ويبقى السؤال الجوهري: ماذا يريد الكتاب أن يقوله من خلال أبوابه الثلاثة؟

ان المنطقة العربية تتعرض منذ سنوات بعيدة لعمل منظم ومبرمج لأحتلاله إعلامياً ، وهو احتلال أقوى وأقسى من احتلال الأرض بمعايير القوة العسكريّة ، لأن الارض يمكن احتلالها بسهولة ، ولكن احتلال العقل أصعب بكثير ، وتاثيراته أعمق وأخطر ، ومنهجياته العلميّة اعقد في غسل دماغ العقول ، لهذا كان (الآخر) ينشئ مختبرات العلم ، و(يخصّب مضمون الإعلام) ويستثمر العلوم ، ويوظف تقنياته الإتصالية لخدمة مخططاته ، وهي مخططات ترمي الى بناء رسالة إعلاميّة مؤثرة ، تستمد قوتها الأقناعيّة من مناهج علم النفس والعلوم الحديثة ، ولتصبح الرسالة بمفهومها الشامل عمليات نفسية واجتماعية وفسيولوجية لاختراق البشر ، وتكريس نماذجها وأنماطها وثقافتها ،على المجتمعات العربية بوسائل الحرب النفسية وغسل العقول وتدمير النفس . بمعنى أن تصبح الرسالة الإعلامية ذات جدوى في عملية التاثير اشبه بتاثير (اليورانيوم المخصب) في تاثيراته البيولوجية والفسيولوجية والنفسيةعلى المتلقي ، بمعنى إن (يورانيوم الإعلام المخصب) في مختبرات الإعلام والعلاقات العامة والحرب النفسيّة ، يريد بأشعاعاته المرضيّة أن يحدث أكبر تأثير في عقل الأنسان ومدركاته ، لتدميره معنوياً ، واصابته بأمراض القلق ، والانحراف ،والأعصاب ، والأغتراب ، والتمرد والفردية ، والعدوانية ، والاستهلاك ، وتوطين العجز في النفوس ، وبمعنى أوسع تدمير الواقع العربي وبنيته الأجتماعية وثقافته وقيمه .

وهناك الأخطر ، على جبهة العرب ، وهي جبهة ضعيفة ، تسمح للآخر باختراقها ،فانظمتها السياسة ، تقمع مجتمعاتها ، وتختزلها بالحاكم الواحد ، وتقيد حرياتها وتكتم أفواهها ، وتنبذ الديمقراطية وحق الاتصال والتعبير ، وتمنع مشاركتها في صنع القرارات والتعبير عن افكارها بالقمع والقسر ، وأنظمة اجتماعيّة تعاني من الاميّة والجوع والتخلف والقهر الأجتماعي ، والسلطوية الأجتماعية والطبقيّة ، وبطالة قاتلة ، وشباب مهمشون وضائعون ، وفساد ورشاوي تستشري في مؤسساتها ، وأنظمة تعليمية تقليديّة تجتر

معلومات الأمس، وتهمل العصر، أو تقرّب العصر، وتقتل ثقافة الأمة ولغتها، وتكون عوناً للاختراق الأجنبي، وانظمة اعلاميّة عربيّة تبحث عن الترفيه، وتسطح الفكر والحياة، وتكون اداة لتخريب الذوق، وقناة لتسهيل إشاعة المادة الأجنبية، بدلاً من دورها في حصانة المواطن.

وأعترف بأن مضمون هذا الكتاب، هو عصّاره تجربةً عشتها على جبهتين، جبهة الحرب، وجبهة العلم، وهي تجربة منحتني الكثير من امتيازات الميدان وخصوصياته، فقد عشت حروب العراق، وحروب الآخرين ضده، تحت قصف الطائرات وصواريخ الكروز، وقصف مدافع الإعلام الغربي والأمريكي وحروبة النفسية، وحروب الأعصاب، واشعاعات اليورانيوم المخصّب، ويورانيوم الإعلام، ولم تكن المشاركة مجرد (شاهد عيان) بلغة الإعلام الغربي لتضليل المتلقي، إنّما كانت في كثير من الأحيان مشاركة بالسلاح تحت مفهوم ثقافة عسكرة المجتمع العراقي، ومشاركة بالكلمة والبحث، ورصد الإعلام الوافد، وتحليل اتجاهاته ومضامينه كأكاديمي وخبير إعلامي.

والمهم في إصدار هذا الكتاب، أنّه يأتي تكملة لتجربتي السابقة في كتاب (إحتلال العقول) الصادر في بغداد عام ١٩٩١، الذي رصد بلغة العلم (أساليب الأجهزة الدعائية الأمريكية والغربية في تنظيم الحملات الإعلامية والدعائية ضد العراق، بصفحات متعددّة، وبأساليب مبتكرة، بقصد تدميره وإرهاب إنسانه)، كما يأتي استجابة لمنطق الحقيقة: أنّ العراق يعيش تحت الاحتلال الأمريكي وآلته العسكريّة والإعلاميّة، ودورنا الوطني، لايكتفي برفض الاحتلال فقط، وإنّما كشف أجنداته وأساليبه في تدمير العراق، أرضاً وإنساناً وحضارةً، من خلال تقنياته وأسلحته التدميريّة العسكرية والإعلاميّة.

كما لايفوتني، من باب العرفان والوفاء، ان أعترف بأن وجودي في دولة الامارات العربية المتحدة، وتجربتها الاقتصادية والإنسانية، ودخولها عصر الحكومية الإلكترونيّة، واقترابها من المجتمعات الرقمية الدوليّة المتطورة، منحتني الحافز على تسليط الضوء على مجتمعاتنا العربية الورقيّة، وأهمية

استنهاض الأمة نحو تحرير العقل العربي بثورة تكنولوجيا المعلومات والإعلام: مثلما كانت تجربتي مع شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا منذ عام ٢٠٠١، حيث منحتني الكثير من التجارب على الصعيد الأكاديمي والبحثي، والاهتمام بموضوع التقنيات الرقميّة، في ضوء اهتمام المفكر العربي الدكتور سعيد عبد الله سلمان رئيس ومؤسس شبكة الجامعة، في عملية تحديث شبكة الجامعة وتطويرها، وتوفير بيئة ابداع للبحث العلمي والتفاعل مع العصر الرقمي.

وبأختصار، فأن الكتاب محاولة علميّة، لاتقترب الى العاطفة لتسيس الأفكار وتنميطها، وتضخيم الظواهر وأفتعالها، إنما هي استقراء الواقع الإعلامي عربياً ودولياً، والتنبيه لمخاطر يورانيوم الإعلام، وجرس إنذار لجميع العرب للاستفادة من العصر وثوراته المعلوماتيّة، وتجارب الدول المتقدمة في صناعة المعلومات وإدارة الأزمات الإعلاميّة، ومحاولة لتقديم ثقافة إعلاميّة معاصرة بموقف نقدي ينحاز للإنسان العربي ومشكلاته، ويستقرئ الحياة الجديدة ومتغيراتها.

والله ولي التوفيق،،،،،،،،

المؤلف
يوليو- تموز ٢٠٠٦
الإمارات العربية المتحدة